التيـــــار الإســـــلامي فـــي السعوديـــــة

(٣-٣)

المجموعة الدولية لمعالجة الأزمات

د. حالة الإصلاح الإسلاموي

أبرزت الإسلاموية السعودية، منذ أواخر التسعينيات، مجموعتان قويتان ونشيطتان من الإصلاحيين المعتدلين. لجأ الإصلاحيون السياسيون لرفع العرائض وأشكال أخرى من الضغط الجماهيري، للتحرك نحو نظام دستوري أكثر انفتاحا، وكانوا يهدفون من وراء ذلك تكوين تجمع تعددي عريض من الشرائح الفكرية والدينية. وقد نجحوا في ذلك إلى حد كبير، واستطاعوا حشد شخصيات ليبرالية وشيعية مهمة، وستكون هناك أهمية كبيرة لأحدث جهودهم، وهو اجتذاب قادة من جماعة الصحوة مثل العودة، لأن ذلك سيكون إيذاناً بتحولهم إلى حركة شعبية. وقد تعين عليهم، في سعيهم لتحقيق هذا الهدف التحدث، بلغة أكثر إسلامية، على الرغم من أن مطالباتهم الأساسية بقيت من دون تغيير منذ كانون الثاني ٢٠٠٣، والأرجح أن نجاحهم والخوف من تحالف موسع قد أديا إلى تصلب موقف النظام في أواخر عام ٢٠٠٣, وقد أدى احتجاز ثلاثة من بعض القادة، كعبد الله الحامد ومتروك الفالح وعلي الدوماني، إلى إعاقة الحركة بشدة.

ويؤكد الإصلاحيون الاجتماعيون، الذين يعارضون انفتاحاً سياسياً سريعاً، الحاجة إلى ضبط وإصلاح الوهابية، وقد وجدوا حلفاء لهم في هذا التوجه، في أوساط الدوائر الفكرية في الرياض بل بعض أفراد الأسرة المالكة أيضا. إلا أن خصومهم في المؤسسة الدينية ومعظم جماعة الصحوة لا يقلون عنهم نفوذا، وبعبارة أخرى إن فرص دعمهم السياسي محدودة، كما أنهم قد يثيرون ردود فعل غير ودية تجاههم. فكلما زاد ضغطهم لتحقيق إصلاح اجتماعي، أي كلما كان هذا الضغط أكثر استفزازاً، ازدادت شدة معارضة جماعة الصحوة لهم، وازدادت احتمالات تحالف هذه الجماعة مع المؤسسة الوهابية، وازدادت الاستقطابات اللاحقة في السياسة الوطنية.

تواصل "آي. سي. جي"، في الحلقة الثالثة من تقرير "التيار الإسلامي في السعودية"، مناقشة قضايا مهمة أخرى، من نحو حالة الإصلاح الإسلاموي، والعنف الإسلاموي. ويورد التقرير تسلسلا زمنيا لأعمال العنف في السعودية، موضحا طبيعة تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب، من حيث الهيكل التنظيمي والحجم والعقيدة الستراتيجية، مع تقديم نبذة عن أعضائه. واشتملت الخلاصة على صورة عامة للتقرير، وعدد من النصائح والتوصيات.

ثالثا: العنف الإسلاموي

أ. تسلسل زمني لأعمال العنف

شكل اندلاع الهجمات الإرهابية مؤخراً تصعيداً في حملة (الميليشيات) الإسلاموية التي انطلقت في أوساط عام ٢٠٠٣, وفي حين أن أعمال العنف ليست شيئاً جديداً، فإن تواصل هذه الموجة متبوعة بمواجهة مباشرة بين السلطات والمتمردين هي الشيء الجديد. وعلى الرغم من الهجوم الذي وقع في الرياض عام ١٩٩٥ وهجوم الخبر عام ١٩٩٦، فضلا عن حوادث العنف المتفرقة في التسعينيات وبدايات العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، كانت الميليشيات الإسلاموية السعودية تركز نشاطاتها عموماً، حتى عام ٢٠٠٣، خارج المملكة العربية السعودية.

وهناك عدة عوامل تفسر هذا التركيز المحلي الجديد الذي تكمن جذوره المباشرة في عودة المئات من أفراد الميليشيات من أفغانستان بعد سقوط طالبان عام ٢٠٠١، وبعضهم، فيما يبدو يحمل أوامر من بن لادن لإعداد هجمات ضد أهداف أمريكية في الأراضي السعودية. الواقع أن هناك دلائل على أن تحضيرات عملياتية قد بدأت في وقت مبكر تعود إلى عام ٢٠٠٢, كما إن المقاتلين العائدين من أفغانستان وجدوا إلهاماً وشرعية في الآراء المتطرفة والجريئة لمفكري السلفية الجهادية مثل ناصر الفهد وعلي الخضير. وقد وفر الإعداد للحرب ضد العراق والتصعيد على الجبهة الفلسطينية – الإسرائيلية وقوداً سياسياً ودينياً وعاطفياً إضافياً ساعد، في الأرجح، على عمليات التجنيد. وقد تكون إجراءات النظام السعودي ضد المتطرفين الإسلامويين في شباط وآذار ٢٠٠٣, والتي صممت لتكون ضربة وقائية ضد أعمال عنف محتملة من قبل الميليشيات خلال الحرب على العراق، الدافع وراء قرار تلك الميليشيات القيام بعملياتها تحت اسم "القاعدة في شبه جزيرة العرب".

هجمات ١٢ أيار ٢٠٠٣

في ١٨ آذار ٢٠٠٣ انفجرت قنبلة قبل الموعد المحدد لها في منزل بالرياض، مما أدى إلى كشف مخبأ هائل للأسلحة. وفي ٦ أيار قامت الشرطة بغارة على منزل آخر في الرياض تطورت إلى معركة مسلحة مع أفراد الميليشيات الذين فروا. وفي اليوم الثاني نشرت السلطات أسماء وصور تسعة عشر من أفراد الميليشيات المطلوبين للعدالة. وفي يوم ١٢ أيار قام اثني عشر مفجرا انتحارياً بثلاث هجمات متزامنة تقريباً على مجمعات سكنية في الرياض، مستخدمين سيارات محملة بالمتفجرات، مما أدى إلى مقتل ٣٠ شخصاً وإصابة نحو ٢٠٠ شخص آخر. كان هذا الهجوم أكثر عمليات العنف أهمية في التاريخ السعودي الحديث، وإيذاناً بمواجهة شاملة بين السلطات وتنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية.

أيار/ تشرين الاول ٢٠٠٣

وقعت خلال الأشهر الستة اللاحقة مصادمات واسعة النطاق بين الشرطة والميليشيات في سائر أرجاء البلد. وفي حين لم يتضح عدد القتلى والمعتقلين من أفراد الميليشيات، أوحت مراجعة نشاطات الشرطة باحتمال تدمير عشرة خلايا أو أكثر، معظمها تتكون من ٥ . ٢٠ فرداً في كل خلية، تتخذ لها بيوتاً آمنة في مكة والمدينة (غرب) والرياض والقصيم (وسط) وجيزان (جنوب). كان في كل بيت آمن تقريباً مخزون كبير من الأسلحة والمتفجرات والمعدات الأخرى، إلا أنه لم يعرف عدد العمليات التي كان مخططاً لها من قبل الميليشيات. فقد تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب العديد من مقاتليه متوسطي المستوى، فضلا عن قائده آنذاك يوسف العيري الذي قتل يوم ٣١ أيار ٢٠٠٣,

تشرين الثاني/ كانون الاول ٢٠٠٣

شنت الميليشيات هجومها الرئيسي الثاني يوم ٨ تشرين الثاني ٢٠٠٣، إذ قام اثنان من المفجرين الانتحاريين يرتديان زي ضباط الشرطة، ويقودان شاحنة (فان) مملوءة بالمتفجرات، باقتحام مجمع المحيا السكني وتفجيره. وأدى الانفجار إلى مقتل ١٧ شخصا وإصابة ما يزيد على ١٢٠, وقد قوبل الحادث باستياء جماهيري عام، لأن العديد من الضحايا كانوا عرباً ومسلمين، وكان فيهم عدة أطفال أيضا. بعد ذلك بأسبوعين استولت شرطة الرياض على شاحنة محملة بالمتفجرات، محبطة بذلك هجوماً إجرامياً أكبر حجماً بكثير من الهجمات السابقة.

في كانون الأول أطلق فصيل يدعى ألوية الحرمين حملة جديدة تستهدف كبار المسؤولين الرسميين. وأفادت تقارير بإبطال مفعول سيارة متفجرة قرب مبنى قيادة جهاز الاستخبارات السعودي، وتعرض مسؤول كبير في مكافحة الإرهاب لإطلاق النار وأصيب بجروح. وطبقاً للإشاعات فقد جرت محاولة لاغتيال ابن وزير الداخلية الأمير محمد بن نايف. وفي ٢٩ كانون الاول انفجرت قنبلة صغيرة في سيارة مسؤول في جهاز الاستخبارات لم يكن فيها أحد عند وقوع التفجير.

كانون الثاني/آذار ٢٠٠٤

على الرغم من استمرار القتال المسلح بين الشرطة والميليشيات تغير نمط الاعتقالات والمواجهات. فباستثناء صدام رئيسي واحد وقع في بيت آمن في الرياض يوم ٢٩ كانون الثاني، نادرا ما تواجد أفراد الميليشيات في مجموعات تزيد على ثلاثة أشخاص، وكان يتم اكتشافهم على الطرق أكثر بكثير من اكتشافهم في منازل. حوادث واعتقالات كهذه حصلت غالباً في منطقة الرياض، وفي يوم ١٥ آذار ٢٠٠٤ قتلت الشرطة خالد الحاج، الذي يقال إنه القائد الجديد للمليشيات.

نيسان/حزيران ٢٠٠٤

شهدت الفترة منذ شهر نيسان ٢٠٠٤ ارتفاعاً في الاشتباكات المسلحة على الطرق ونقاط التفتيش، وكانت الميليشيات هي التي تبدأ بإطلاق النار وبوتيرة متزايدة. وأفادت الشرطة بأن الميليشيات أخذت تستخدم أسلحة أثقل، بما في ذلك ذات الدفع الصاروخي والقنابل اليدوية. وفي يوم ٢١ نيسان انفجرت سيارة مفخخة أمام مبنى إدارة السير وسط الرياض، ونتج عن الحادث مقتل ستة أشخاص، وجرح نحو ١٥٠ آخرين. وأبرزت العملية خلافا متزايدا في أوساط الميليشيات حول مهاجمة أهداف رسمية محلية أم لا. وفي حين أن ألوية الحرمين أعلنت مسؤوليتها عن الحادث، أنكر قائد في تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب هو عبد العزيز المقرن، التورط في هذه العملية، مصرا على أن "اليهود والأميركيين والصليبيين عموماً" هم الذين يبقون الأهداف ذات الأولوية.

وكما لو كان الأمر تأكيداً لرسالة المقرن، فقد تسلل أربعة من أفراد الميليشيات إلى مقر الشركة السويسرية ABB في ينبع (على الساحل الغربي) يوم الأول من أيار وقتلوا خمسة موظفين، مما أبرز مخاوف من أن يكون تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب قد أخذ بتوسيع المنطقة الجغرافية لنشاطه، مستهدفا صناعة النفط. وبعد عملية ينبع، وقعت عملية أخرى يوم ٢٩ أيار، حين تسلل أفراد الميليشيات إلى مجمع سكني في الخبر (الساحل الشرقي)، وتجولوا في المباني، يدخلون غرفة تلو أخرى ويقتلون الغربيين ويستثنون المسلمين. وعندما انتهت هذه الدراما بعد نحو ٢٤ ساعة كان هناك ٢٢ قتيلاً، في حين تمكن عدد من أفراد الميليشيات من الفرار. ومنذ أواخر أيار وما بعد ذلك أخذت الميليشيات تقتل أفراداً غربيين حول الرياض، وقاموا بتصوير اغتيال أحد الأمريكيين في منزله، ونشروا الواقعة على الإنترنت. وبعد بضعة أسابيع نشروا أيضاً على الإنترنت عملية قطع رأس أمريكي آخر هو بول جونستون.

حزيران/أيلول ٢٠٠٤

في يوم ١٩ حزيران ٢٠٠٤ قتلت الشرطة أربعة من كبار أفراد الميليشيات، بمن فيهم قائدهم المفترض الجديد عبد العزيز المقرن. وبعد ذلك بأربعة أيام عرضت الحكومة عفواً محدوداً على كل من يسلم نفسه خلال شهر، ووعدت بأنها لن تقوم بإعدامهم، وستترك قرار محاكمتهم لعائلات الضحايا. رفض تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب هذا العرض، ويقال إن ستة فقط من أفراد الميليشيات، لا يشغلون مواقع مهمة، قد سلموا أنفسهم، لكن موجة الاختطافات الوحشية والهجمات العنيفة توقفت فترة قصيرة (ونسبية) في الأشهر التي أعقبت مقتل عبد العزيز المقرن. ولم يتم الإبلاغ سوى عن ثلاث حوادث تبادل إطلاق نار بين الميليشيات ورجال الشرطة خلال شهري تموز/آب، اثنان منهما في ١ و٢٠ تموز في الرياض والثالث يوم ١١ آب في مكة، وتم خلالها قتل خمسة آخرين من أفراد الميليشيات. وفي ٢ آب تم اغتيال مهندس آيرلندي في مكتبه في الرياض، وهو أول هجوم من نوعه منذ أواسط حزيران.

وربما كانت فترة الهدوء المؤقت هذه مجرد فاصل استراتيجي لإتاحة الفرصة للميليشيات كي تعيد التجمع. وواصلت المجلات الجهادية مثل "صوت الجهاد" و"معسكر البتار" الصدور بالوتيرة نفسها، كما تم إصدار مجلات جديدة مثل المجلة الجهادية النسائية "الخنساء"، مما يوحي باستمرار نشاط الميليشيات. كما زادت نشاطات الميليشيات مؤخراً، بما في ذلك حادث إطلاق نار على سيارة دبلوماسي أمريكي يوم ٣٠ آب، وحوادث إطلاق نار في بريدة أيام ٣ و٤ و٥ أيلول، أسفرت عن مقتل خمسة من رجال الشرطة، فضلا عن انفجارين قرب بنوك غربية في جدة يوم ١١ أيلول.

مع ذلك، هناك سبب يدعو للاعتقاد بأن فقدان البيوت الآمنة، واعتقال أو قتل شخصيات رئيسية وقادة متعاقبون لتنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية، مثل رئيس تحرير "صوت الجهاد" عيسى العوشن، وكبير المنظرين فارس الزهراني، قد تسبب في أكثر من مجرد ضرر مؤقت لتنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب. ويقال إن القائد الجديد لهذا التنظيم صالح العوفي يحظى بتقدير أقل من أسلافه، من حيث الخبرة والمهارات القيادية.

ب. تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب

تتوفر عادة معلومات شاملة عن الميليشيات الإسلاموية السعودية، ومعظمها مصدره أفراد الميليشيات أنفسهم الذين روجوا لقضيتهم من خلال المنشورات وأشرطة الفيديو ذات الجودة العالية، وكلاهما ينشر على الإنترنت. كما أن السلطات السعودية أخذت تبدي استعداداً خاصاً لنشر معلومات عن أفراد الميليشيات، على الرغم من أنه ينبغي النظر إلى هذا بعين الشك، في حين تم إفساح المجال للصحف المحلية لإجراء تحقيقاتها.

١- الهيكل التنظيمي

الهيكل التنظيمي لتنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب مخلخل، إذ يعمل أفراد الميليشيات في مجموعات منفصلة ومعزولة إلى حد كبير، لكنهم يعتبرون أنفسهم جزءاً من حركة شاملة. وتتم إدامة وعيهم التنظيمي الجماعي عن طريق الروابط الأخوية القوية المكتسبة في معسكرات التدريب في أفغانستان، أو عن طريق الخبرات المشتركة بينهم كمطاردين ومتمردين في السعودية، وبحكم توجهاتهم العقائدية المشتركة التي تركز على الحاجة للقضاء على الوجود الأمريكي في شبه الجزيرة العربية، ووجود جهاز إعلامي متطور يوفر التماسك السياسي ويرفع معنويات العاملين في الميدان.

عمل تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب منذ البداية على أساس نظام الخلايا الصغيرة. ولم تكن قوات الأمن تجد عادة أكثر من ٢٠ من أفراد الميليشيات، وغالباً أقل من ذلك بكثير، في بيوتهم الآمنة وبأسلحتهم ومعداتهم. الأسماء المستخدمة من قبل الميليشيات، مثل سرية الفلوجة وسرية القدس وألوية الحرمين، تشير، في الأغلب الأعم، إلى خلايا أو مجموعات فرعية طورت بمرور الوقت هويات منفصلة واستراتيجيات وتكتيكات مختلفة قليلاً. وفي حين أن تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب يعتبر أسامة بن لادن وأيمن الظواهري بمثابة المرجع الإرشادي الأعلى له، فإن خطوط الاتصال مع القيادة البعيدة قد تعطلت، على الأغلب، منذ زمن بعيد. وبمرور الزمن تعدد أفراد الميليشيات الذين أصبحوا قادة، ولكن لا أحد يعرف بالضبط مقدار القيادة والسيطرة التي مارسها كل منهم على التنظيم. وهناك بعض الأدلة التي تشير إلى أن تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب يضم لجاناً متخصصة أو مجموعات فرعية تتولى مسؤولية التعليم/التدريب، والاستراتيجية/الإنتاج الإعلامي، والشؤون الدينية.

وعلى الرغم من الإنكار الرسمي المتكرر من تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب توحي إفادات أفراد الميليشيا أنفسهم بوجود سبل للتدريب في معسكرات خاصة، فضلا عن مراكز تعليم في الأراضي السعودية، في مناطق نائية عموماً ولكن ليس دائما. وقد تم، على الأرجح، اكتشاف وتدمير معظم هذه المعسكرات والمراكز خلال السنة الماضية. وأغلبية أفراد تنظيم القاعدة الأصليين شاركوا في دورات تدريبية في معسكرات القاعدة في أفغانستان في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، ولكن مع انهيار طالبان برزت الحاجة إلى إيجاد مواقع بديلة. وقد سعى الجهاديون، بقيادة يوسف العيري على الأرجح، إلى تأسيس معسكرات في المملكة قبل وقت طويل من أيار ٢٠٠٣,

ويبدو أن مكتب الإعلام ذا المستوى المهني الرفيع التابع لتنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب هو أحد أهم وحدات هذا التنظيم وأكثرها حماية. فعلى الرغم من النكسات المتكررة التي منيت بها المجموعة وفقد أفرادها، واصلت منذ أواخر أيلول ٢٠٠٣ إصدار مطبوعاتها نصف الشهرية "صوت الجهاد. ومنذ كانون الاول ٢٠٠٣ أصدرت مطبوعة نصف شهرية أخرى مختصة بالشؤون العسكرية هي "معسكرات البتار". وصدر حتى الآن أربعون عدداً، كل منها يضم نحو ٤٠ صفحة، فضلا عن فيلمين طويلين عاليي الجودة. وساعدت "صوت الجهاد"، بكل المقاييس، على إدامة الصلة بمسؤولين في الميدان، وفي الوقت نفسه استطاعت الإفلات من أجهزة الاستخبارات السعودية، وهي ليست بالمسألة الهينة. كما توحي الأدلة أيضاً بأن لدى المحررين أرشيفاً يثير الإعجاب، من النصوص وأشرطة الفيديو والتسجيلات الصوتية، لمواد تعود إلى عشرين سنة سابقة. وعلى الرغم من أن مكان إعداد المجلات وطباعتها غير معروف بشكل مؤكد، فالأغلب أنه يجري تحريرها في أماكن منفصلة من قبل هيئتي تحرير. وليس هناك سوى معلومات قليلة حول هوية أو تشكيل لجان التحرير.

كما يؤكد أفراد الميليشيات أهمية دور أئمة الدين في التجنيد والدعاية. وبعد اعتقال مفكرين سلفيين جهاديين بارزين مثل ناصر الفهد في أيار ٢٠٠٣, تحولت المنظمة، فيما يبدو، إلى شخصيتين أقل شهرة هما فارس الزهراني وعبد الله الرشود، اللذين تم فيما بعد اعتقالهما أو قتلهما.

وهناك أسئلة تدور حول علاقات دولية مزعومة لتنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب. فطبقاً لبعض التقارير كان قد تم التخطيط لعدة هجمات من قبل أفراد القاعدة العاملين في إيران، بينما اتهمت السلطات السعودية جماعات المعارضة المقيمة في لندن بذلك. وقد مالت أوساط الإعلام السعودية والعالمية لاعتبار تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب جزءا أساسيا من شبكة تنظيم القاعدة على المستوى العالمي بقيادة بن لادن والظواهري، ولكن لم تثبت صحة ادعاءات من هذا النوع. الاتهامات حول إيران والمعارضة في المنفى تأتي عادة من "مصادر استخبارية" غير محددة، ويبدو أن وراءها دوافع سياسية. لكن الارتباط بالقاعدة كان أكثر احتمالاً، إذ أن معظم أفراد ميليشيا تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب مروا من خلال أفغانستان، ومن المحتمل جداً أنهم التقوا بكبار قادة القاعدة قبل أواخر عام ٢٠٠١, والأرجح أن أفراد هذه الميليشيات يرون أنفسهم، كما يتضح من تسمية تنظيمهم، جزءاً من حركة القاعدة العالمية، وهناك مؤشرات على أن تنظيم القاعدة قد شجع في أواخر عام ٢٠٠١ على شن هجمات داخل السعودية من قبل المقاتلين العائدين من أفغانستان. ولكن الانجذاب العقائدي، وحتى الشخصي شيء، والتعاون العملياتي شيء آخر. إن من المشكوك فيه جداً أن تكون لقيادة تنظيم القاعدة علاقة مع أفراد ميليشيات تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب، وأنها تملي عليهم القيام بعمليات محددة.

٢- الحجم

تختلف التقديرات حول حجم الميليشيات الإسلامية الناشطة، وذلك لاسباب تتعلق بالسرية، وباختلافات تتعلق بتحديد طبيعة نشاط هؤلاء الأفراد (أي هل تشمل التقديرات المقاتلين فقط أم أيضاً أولئك الذين يوفرون الدعم اللوجستي والسياسي). وتشمل القائمتان اللتان تضمان أسماء المطلوبين للسلطات السعودية، والتي تم نشرها في كانون الاول ٢٠٠٣ ما مجموعه ٤٠ شخصاً قتل أو اعتقل ٣٠ منهم. ولكن مصادر مقربة من الاستخبارات السعودية تقر بوجود قائمة سرية وتوحي بأن عدد الأسماء فيها ربما يقترب من ٥٠٠, وفي أيار ٢٠٠٣ حددت مصادر أمريكية وسعودية، كلاً على حدة، عدد المقاتلين الفعليين بين ٢٠٠ . ٤٠٠, وإذا جمعنا عدد المقاتلين الذين ذكرتهم السلطات السعودية أو مطبوعات الجهاديين أنفسهم خلال السنة الماضية، فإن الرقم يتراوح تقريباً بين ١٤٠ . ١٥٠، وهناك من يعطي تقديرات أكثر. ومع ذلك يبقى عدد المقاتلين الناشطين فعلاً مسألة أخرى، ويعود إلى مدى فعالية العمليات السرية السعودية (زعمت المصادر الرسمية في أواسط عام ٢٠٠٤ بأن نحو ٧٠٪ من أفراد ميليشيات تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية الناشطين فعلاً قد قتلوا أو أسروا) ومدى كفاءة جهود التجنيد لدى الميليشيات.

٣- العقيدة والاستراتيجية

انفرد تنظيم القاعدة عن التفكير الجهادي المألوف بالتركيز بصورة رئيسية على "العدو البعيد/ اليهود والصليبيين"، ولا سيما في الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن "العدو القريب/الأنظمة المحلية في العالم الإسلامي" تعد فاسدة وقمعية وغير إسلامية، وبالتالي يجب الإطاحة بها، بقيت "القوة التي دعمت هؤلاء الحكام غير الشرعيين ودنست الأرض المقدسة في الجزيرة العربية.. هي الهدف المفضل". وعلى النقيض من ذلك فإن تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب، وفي الوقت الذي يعتبر فيه نفسه جزءاً من الحركة الدولية نفسها، ويعلن إعجابه بالقيادة التاريخية لتنظيم القاعدة، فإنه يمثل ردة نسبية للتركيز على المستوى الوطني، فمطبوعات هذا التنظيم، مثلاً، تركز بصورة أساسية على قضايا محلية. إن مطبوعات "صوت الجهاد" و"معسكر البتار" تأتي على ذكر فلسطين والشيشان وأفغانستان وكشمير، ولكن بطريقة عابرة غالباً. مع ذلك، فإن التركيز على السعودية بقي حتى الآن لفظياً بلاغياً أكثر منه عملياً، من حيث أن الميليشيات، باستثناء ألوية الحرمين، لا تزال تركز هجماتها على أهداف أجنبية. وكما مر بنا، سعى تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية إلى تحديد الهجمات ضد أهداف سعودية، وهي مسألة انقسم حولها الجهاديون.

وبرزت التطورات حول الأجندات المحلية والدولية بأوضح صورة في المسألة العراقية. فالعديد من الميليشيات الإسلاموية ترى أن مقاومة الاحتلال الأمريكي هناك قضية أجدى بكثير، وأسلم من ناحية دينية، من قتال الشرطة السعودية في الرياض. واتهم بعضهم تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب بتقويض جهود الإسلامويين، عن طريقة تحويل الاهتمام عن العراق، ويبدو أن بعض أفراد عدد من الميليشيات السعودية اختاروا القتال هناك. ودفع النقاش الكتاب في "صوت الجهاد" للمحاججة بشدة بأنه، بالنسبة للسعوديين في الأقل، فإن قتال الأمريكيين محلياً له الأولوية على الالتحاق بالجهاد في العراق.

٤- نبذة عن الأعضاء

تشير الدلائل إلى ثلاث موجات لمقاتلي تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب. فهناك المقاتلون في الحرب الأفغانية في ثمانينيات القرن الماضي، والمشاركون في معسكرات تدريب القاعدة، ولا سيما في أفغانستان، بين عامي ١٩٩٦ و٢٠٠١ بالنسبة للأعضاء في قلب التنظيم فالخصيصة المشتركة الأهم التي تميزهم، والتي تعتبر أيضاً مدخلا لفهم هذا التنظيم هي التجربة الأفغانية المشتركة، أما كمجاهدين وأما في معسكرات التدريب. هذه التجربة تركت لديهم توجهاً أيديولوجياً مشتركاً وثقافة عسكرية وخبرة فنية. إلا إن من الصعب معرفة ما إذا كان يمكن توريث هذه المكتسبات للمجندين الجدد وبأية درجة.

إن معظم أفراد الميليشيات ذوو مستوى تعليمي بسيط، إذ يبدو أن الأغلبية قد تركوا المدرسة بين الخامسة عشرة والعشرين من أعمارهم، وقليلون فقط هم الذين لديهم، فيما يبدو، شهادات جامعية. كان ترك المدرسة أحياناً يأتي نتيجة لقناعة عقائدية أو ضغوط اجتماعية، وليس بسبب قصور في الذكاء. ومعدل أعمار أفراد الميليشيات في القائمة الحكومية مرتفع نسبياً (نحو الثلاثين) ولكن المجندين الجدد والأصغر سناً قد لا يكونون مشمولين، على الأغلب، في هذه القائمة. ومع أن معظم الأعضاء هم من الرجال الذين تركوا وراءهم زوجات وأطفالا، فإن "صوت الجهاد" أولت اهتماماً بالنساء، بل إن هناك مقالات عدة بأقلام نسائية.

أخيراً، وعلى الرغم من التخمينات التي كانت سائدة حول الزيادة النسبية لأعضاء الميليشيات الذين ينتمون لمناطق مهمشة سياسياً، ولا سيما عسير، والمنتمين لتنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية، فإن أفراد الميليشيات ينتمون إلى جميع المناطق، وتوحي أسماؤهم بتنوع جغرافي وقبلي واسع النطاق.

رابعا: الخلاصة

أدى بدء أعمال العنف فوراً إلى زيادة التكهنات في الغرب حول مدى استقرار النظام. والتحدي، من أوجه عدة، لم يسبق له مثيل، إذ استطاعت الميليشيات تقويض الإحساس بالأمن لدى معظم الغربيين، فضلا عن عدد لا بأس به من السعوديين. ولكن هناك مبالغة في تضخيم التهديد، نتيجة لقلق يمكن تفهمه حول مصير بلد منتج رئيسي للنفط، والغموض الذي غالباً ما يحيط بالأحداث في المملكة.

وبالإجمال، وبمقاييس عسكرية مجردة، فالواضح أن اليد العليا هي للنظام. لقد أدت العمليات الإرهابية للميليشيات حتى آب ٢٠٠٤ إلى مقتل ما يزيد على ٧٠ شخصاً، فضلا عن مئات الجرحى، كما قتل عدد غير معروف من قوات الشرطة والأمن أيضاً. وإزاء ذلك تم وضع قوات الأمن في حالة تأهب كامل منذ أيار ٢٠٠٣، وتحسن مستوى التدريب والتزود بمعدات مكافحة الإرهاب، وطرأت زيادة جوهرية على رواتب أفراد الشرطة. كما تكثف التعاون مع الولايات المتحدة، على الرغم من وجود أسباب قوية للاعتقاد بأن السلطات لجأت إلى التعذيب في حالات الاستجواب، مع الأسف. ويمكن ملاحظة درجة الحماية المرتفعة في أرجاء المملكة، مما حدا ببعض السعوديين للشكوى من أن الحراسات ونقاط التفتيش العديدة أخذت تؤدي إلى قيام مجتمع عسكري. وستتعمق هذه الحالة على الأرجح، ولا سيما في ضوء الإعلان الذي صدر في شهر حزيران ٢٠٠٤ بالسماح للأجانب وشركات الأمن الخاصة بحمل السلاح.

وقامت أجهزة الأمن بعمليات وغارات لا تحصى، واعتقلت من ١٠٠ إلى ٦٠٠ شخص، بمن في ذلك مقاتلين والعديد من الوعاظ المتطرفين المعروفين. وقد تم اعتقال أو قتل جميع المشتبه بهم في قائمة الحكومة التي تضم ١٩ شخصاً والتي نشرتها في أيار ٢٠٠٣، باستثناء شخص واحد، كما تم اعتقال أو قتل ١٦ من قائمة الـ ٢٦ المنشورة في كانون الاول ٢٠٠٣, ومن المرجح أن تكون العمليات متدنية المستوى التي وقعت مؤخراً، مثل إطلاق النار من سيارة عابرة والاغتيالات الاستهدافية، قد تمت من قبل متعاطفين وليس من قبل مقاتلين من صلب حركة الميليشيات، مما يشير إلى نجاح نسبي لتنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب في إلهام الإسلامويين الشباب للتصرف بشكل مستقل. إلا أن ذلك قد يشير أيضاً إلى أن الكوادر القيادية، وجميعهم من المقاتلين السابقين في أفغانستان، قد أنهكوا وأن إجراءات السلطات قد جعلت من الصعب القيام بعمليات جيدة الإعداد تتطلب تدريباً مسبقاً وبيوتاً آمنة وما شابه ذلك. إن عدم توفر بيوت آمنة يعني، في الغالب، عدم توفر أموال وأسلحة وإمدادات، فضلا عن ذلك ليس هناك دليل على أن أي قائد في تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب قد تم تدريبه كلياً داخل السعودية.

إلا أن ضعف أجهزة مقاومة الإرهاب في السعودية ظهر في ارتفاع عمليات الميليشيات خلال الربع الثاني من عام ٢٠٠٤, وقد أثار هجوم الخبر، على وجه الخصوص، انتقادات واسعة النطاق لكفاءة الأجهزة السعودية المختصة، فقد انقضت فترة طويلة قبل أن تتدخل قوات الشرطة واستطاع ثلاثة من الميليشيات الفرار برغم الحصار. وبنظرة متأملة متأخرة، يبدو أن إجراءات مقاومة الإرهاب السعودية قد أعدت بصورة رئيسية لمواجهة تفجيرات سيارات على نطاق واسع في مناطق المدن، ولم تكن معدة بشكل مناسب للتغيير التكتيكي والجغرافي الذي حدث في هجمات ينبع والخبر. وقد غدت أخطاء الشرطة المتكررة وحيازة الميليشيات معدات من الشرطة والجيش التكهنات بأن تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب يتلقى دعماً من أجهزة الأمن أو أنه تمكن من اختراق هذه الأجهزة، وهي تهم يصعب التثبت منها.

وبغض النظر عن هذه المراجعة السيئة، فالسؤال الحقيقي هو ما إذا كان بوسع الميليشيات الإسلامية العنيفة اجتذاب متعاطفين جدد، وما إذا كان النظام السعودي سيطبق استراتيجيات عسكرية وسياسية مناسبة لإلحاق الهزيمة بها.

النظام، إلى حد ما، أدرك ذلك، وأخذ ينوع الأساليب التي يستخدمها، دون التقيد الصارم بالتكتيكات العسكرية. ففي حين رفض النظام في تشرين الثاني ٢٠٠٣ رفضاً تاماً الدخول في أي حوار، بما في ذلك المبادرة التي عرضها الحولي وثلاثة من الإسلامويين الآخرين للتوسط بين الحكومة والميليشيات المسلحة، أخذ يعدل موقفه تدريجياً. وفي شهر أيار ٢٠٠٤ وصل منتصر الزيات، وهو محام مصري إسلاموي مشهور، ساعياً "لفتح قنوات حوار مع المتطرفين". وفي أواخر حزيران ٢٠٠٤ عرضت الحكومة عفواً على من يستسلم من المتمردين خلال شهر. وفي تموز قيل أن الحولي قد تم استخدامه وسيطاً أو "واسطة اتصال" مع عناصر الميليشيات الراغبين في الاستسلام، وبعد ذلك بوقت قصير أعلنت الحكومة فترة مدتها شهران، يمكن خلالها تسليم الأسلحة غير المشروعة، من دون ملاحقة الذين كانت بحوزتهم.

كما أطلق النظام أيضاً حملة تهدف إلى تعميم عدم مشروعية الميليشيات عن طريق:

١- حشد كبار العلماء من المؤسسة الدينية الرسمية لنشر الوعظ ضد أفراد الميليشيات، وإدانة سلوكهم انطلاقاً من أسس دينية. إلا أن من المشكوك فيه أن يكون هذا الأسلوب فعالاً، في ضوء المصداقية الضعيفة لرجال الدين الطاعنين في السن.

٢- تحويل المعتقدات الدينية الخاصة بأفراد الميليشيات ضدهم، كما لاحظنا سابقاً. فقد أعلن ثلاثة من رجال الدين الجهاديين البارزين، في شهري تشرين الثاني وكانون الاول ٢٠٠٣، توبتهم على شاشة التلفزيون.

٣- تشجيع وعاظ جماعة الصحوة مثل العودة لإدانة أعمال العنف.

٤- إبراز معاناة الضحايا الأبرياء في وسائل الإعلام المملوكة للدولة. فقد تم نشر صور تلفزيونية للجرحى والضحايا الملطخين بالدماء بطريقة واضحة للغاية، وركزت مقالات الصحف على العائلات الثكلى والأطفال القتلى في الهجمات الإرهابية. ويعتقد بعضهم أنه كان لذلك تأثير قوي في الرأي العام.

٥- لجوء النظام إلى طلب مساعدة إسلامويين في الخارج، له بعض النفوذ عليهم. فقد استنتج الكثيرون أن هناك يداً سعودية خفية تقف خلف إدانة حماسة لهجمات الخبر في أواخر أيار ٢٠٠٤,

وبشكل أكثر عمومية اتخذ النظام خطوات أولى لكبح نفوذ المتطرفين، مثل حذف الدروس التي تغرس في الأذهان العداء للمسيحيين واليهود من الكتب المدرسية، ووضع خطط للحد من الفقر.ويستطيع النظام البناء على قاعدة جيدة الاستجابة، فقياس الرأي العام السعودي يفتقر إلى الدقة في أحسن الأحوال، ويكبله غياب استفتاءات ذات مصداقية. مع ذلك فإن مقابلات الـ"آي سي جي" وشواهد أخرى توحي باستياء واسع من أعمال العنف، ولا سيما الأعمال الموجهة ضد سعوديين، حتى لو كان هناك العديد منهم يؤيدون البلاغة اللفظية للميليشيات الإسلاموية ونظرتها للعالم.

كان أشد ما أثار استنكار المواطنين العاديين هو هجمات ٨ تشرين الثاني ٢٠٠٣ على مجمع المحيا السكني، والتي كان ضحاياها الرئيسيون من العرب، وشملت الكثير من النساء والأطفال. ويبدو أن الهجمات الإرهابية والمواجهة بين الشرطة وأفراد الميليشيات تعزز هذا الإدراك، وقد استخدم جميع السعوديين الذين قابلتهم الـ"آي سي جي" كلمة "إره